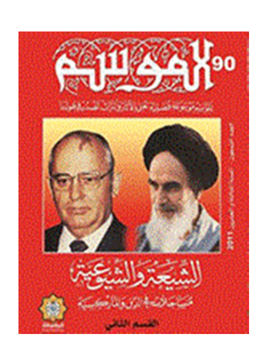


الإمام الخوئى (قده) علامة بارزة آفاقنا العلمية

الوائلى، أحمد

نشريه الموسم :: السنة ۱۴۱۴ - العدد ۱۷





الامام الخوئي (قده) علامة بارزة في آفاقنا العلمية

الدكتور الشيخ احمد الوائلي

بين يدي البحث

منذ امد بعيد والعزم يراودني على الكتابة في بعض المواضيع التي تتعلق بكتاب الله المجيد وكلما شحذت عزمي ودنوت الى الموضوع رجعت والرهبة تملأني مع اني في مسيرة ليست قصيرة انهل من عطائه في حدود قدراتي المتواضعة، وكم من مرة دفعتني عزمة على تناول بعض ما يتصل بالشيعة من المواضيع القرآنية التي نتعرض معها الى بعض الحملات الظالمة والاقلام غير المسؤولة والتي اتفاعل معها بصورة مستجدة عندما استعرض آية من كتاب الله عزت قدرته واشرح ما ورد فيها من المضامين في بعض محاضراتي ولكني اعود للتهيب لادراكي ضخامة المهمة وما تحتاجه من قدرات لا تتأتى الا للأساطين والعمالقة. غير ان الذي شجعني على ولوج بعض المداخل ذات الصلة بما استفاده اوعية العلم القرآني للوصول الى ما افادوه وفهم ما دونوه، اعتقادي بان ما املكه من قدرة في حدودها الضيقة مشمولة بالدعوة للتدبير في القرآن الكريم لانه كتاب الله تعالى للانسانية يفيض على كل قابل بما يملك من قدرة وادوات وما هو مفروض من جواز الاخذ بظواهر الكتاب الذي هو كتاب عربي لكي يصل الى فهم مفرداته وجمله من عرف اللغة وما يتصل بها من ابعاد. كل هذا دفعني لان الج هذا الباب مستعيناً برحمة الله تعالى ومسترفداً كرمه بان يسددني في القول لمنه كل خير وعطاء وعليه التوكل في كل مهم.

المنفذ الذي التمسه هنا هو الطريق الى اخطار مجموعة من اساطين التفسير للتعرف على ما اعتبروه وسيلة لالقاء الضوء على الاسس التي لابد من فهمها لتوقف كثير من المضامين القرآنية عليها سواء في الاحكام او العقائد وقد اعتاد العلماء على وضعها في مقدمة التفاسير لتحقيق الهدف المذكور، وبالتالي للتعرف على مكانة فكر الخوئي من هذا الحقل من حقول المعرفة الذي هو أجلّها واخرها. ومن البداهة بمكان ان هذا المضمار يعرف به السابق من اللاحق ويتم الكشف فيه عن الوثبات الذهنية خصوصاً مع وحدة الموضوع وتحدد من يتناوله. وسنكتشف خلال استعراض ما كتبوه في هذا الحقل التفاوت في

الملامح والموسوعية سيما مع وحدة ما عالجوا مضامينه من عناوين وقد اخذنا بعين الاعتبار وحدة الزمن عند شريحتين منهم حتى لا يقال ان التفاوت بالزمن له دخل في تنوع وعمق المعلومات وذلك بالاضافة الى ان معظم المواضيع التي عولجت ليست من النوع الذي للزمن دخل في طبيعة معالجته من حيث العمق والثروة الفكرية.

ومن الواضح ان الشرائح التي توخيت مقارنتها بما كتبه السيد في البيان هي شرائح منتقاة ومختارة ومراعى فيها النخبة من حيث القدرات العلمية والمهارات المكتبية في حقل القرآن الكريم والتضلع بالفنون ذات الصلة به حتى لا تظلم مكانة السيد عن طريق حشره مع من ليس من فرسان هذا الميدان خصوصاً وهذا المورد قد ازدحم عليه الكثير ممن تتفاوت قدراتهم ومكانتهم في التأهل لمثل هذا العمل، وقد كان من الأولى بمن لا يملكون القوادم وما يزال جناحهم في فترة الزغب ان لا يجشموا انفسهم عناء التحليق الى هذه القمة التي تكبر على امكاناتهم والتي قد ينتهون معها الى ظلم انفسهم بتحميلها ما لا تطيق او ظلم الكتاب بإخضاعه الى قدرات بدائية يتعبها هذا التطلع.

وكان ان اخترت شريحتين من المفسرين بينهما زمن فاصل ليس بالقليل ومن اهداف هذا الاختيار التعرف على الفوارق ان وجدت بين العصرين، ثم بين رفقاء العصر الواحد الذي ينتمي السيد الى فصيلتهم. اما الشريحة الاولى فستتكون من الفخر الرازي صاحب مفاتيح الغيب، والقرطبي صاحب جامع البيان، والطبرسي صاحب مجمع البيان، وهم من مختلف فرق المسلمين، واما الشريحة الثانية فهم كل من الآلوسي صاحب روح المعاني، والطباطبائي صاحب الميزان، والسبزواري صاحب مواهب الرحمن، وافراد كل شريحة من عصر واحد والتفاوت قليل بينهم في الزمن. والذي اخترته من مقتطفات مما كتبوه نموذجان، الاول المقدمات التي جعلوها توطئة للدخول الى صلب موضوع التفسير والتي اعتبروها اموراً لابد من فهمها قبل المرور بمضامين القرآن الكريم، وكان استعراضي لها على نحو لا يتعدى ذكرها وعددها بدون الاستيعاب بل لابرز ما

عالجوه على سبيل المقدمة باعتباره عنواناً رئيسياً اما الباقي فهو سيمر ضمن معالجتهم التفسيرية ومن البديهي كما اسلفت اننا سنلمح التفاوت في القدرات من خلال استعراض ذلك والنموذج الثاني تفسير آية البسملة وما استظهروه في ذلك من عطاء هذه الآية الكريمة ويعطف على سالفة فيما اشرت اليه من اظهار القدرات عندهم وسعة المجهود فيما استفادوه منها. وكان كل ذلك في عملية تلخيص شديدة نظراً لسعة ما كتبوه في بعض المضامين مما يخرج عن نطاق هذا البحث الذي حرصنا على ان يكون على نحو الفهرست المختصر على ان يحقق الهدف المطلوب -اعني ابراز مكانة السيد التفسيرية-.

امران هامان

ولابد من الاشارة اليهما قبل الدخول بصلب الموضوع وذلك لاتصالهما بمن كَتب وبما كُتب:

أ- فالامر الاول بركة الوقت عند الامام الخوئي فقد كنت اسمع من مختلف حملة العلم قولهم ان فلاناً قد بارك الله تعالى له في وقته فلا يتضح لهذا القول معنى واضح في ذهني، واتساءل ما معنى بركة الوقت عند بعض دون بعض والزمن اجزاء متساوية ومحدودة بالنسبة للجميع ولكن مع الزمن بداء يتضح لي انها الافاضة منه تعالى على القابل بقدر سعته وهو عز وجل لا بخل في ساحته ولكنها مساحة القابل، وهذه الظاهرة تبدو وبشكل واضح في حياة كثير من علمائنا الذين لو حسبنا اعمارهم وقسمنا ما انتجوه على سني حياتهم بالاضافة الى ممارساتهم من حيث شؤونهم الخاصة ومن حيث افادتهم واستفادتهم في الامور العلمية لاتضح لنا معنى البركة في الوقت. والادلة على ذلك واضحة في الشيخ المفيد والشيخ الطوسي والعلامة الحلي واضرابهم ممن اغنى الساحة العلمية واثراها بالنتاج الضخم كماً وكيفاً، ان ذلك مما لا نكاد نراه عند الكثير ممن يتصدى للانتاج، ويوسع الكاتب ان يكتب وهو مطمئن الى ان السيد الخوئي يعد في الرعيل المنتج الذي هو علامة بارزة في آفاقنا العلمية، لقد كانت اعباء السيد الخوئي كثيرة ومتنوعة القيت على



عاتقه من بواكر حياته ومشت معه حتى وفد على الله تعالى. لقد مرت عليه السنين مثقلةبالافادة والاستفادة وقاد حوزة علمية من خيرة الفضلاء منذ ايامه الاولى فكان يكتب بالاذهان، ويكتب على الطروس فكتابته بالاذهان تتمثل فيما خرّج من تلاميذ نجباء رباهم وغذاهم من مختلف صنوف المعرفة: عقائد، واصول، وفقه، وتاريخ، وسير، وتفسير وهكذا وبقليل من الالتفات لبحث السيد الخوئي «الخارج» وعدد من يحضره ونوعياتهم ندرك مقدار الجهد الذي كان يبذل وحجم المعلومات التي تؤلف المادة العلمية، فالبحث يشتمل على تحضير النصوص وحفظها وعرض النظريات ومناقشتها ثم الانتهاء الى اقرارها او رفضها. كما ان نوعية حضار البحث وهم عادة بالجملة فئة فاضلة وموهوبة يضاعف حجم المهمة حيث يكثر السؤال وتتسع المناقشة حتى يولد مولود فكري جديد من جراء ذلك.

ولا يقف الامر عند ذلك بل يعرض بعد ذلك ما سجل من البحث -التقريرات- عليه لإقرار او حذف بعض ما ورد فيه، فالبحث إذاً إعداد قبل الشروع فيه، ومناقشة اثناء الشروع واشراف على الخلاصة بعد ذلك. كل هذا في خط الدروس والتدريس فاذا رجعنا الى المرجعية واعبائها التي لا يعرفها الا من يعيش قريباً من اجوائها فسندرك حجم الجهد ذلك ان العلماء في آفاق الشيعة الاجتماعية: جهابذة فتيا لتغطية الحاجة الى الاحكام الشرعية والاجابة على الاستفتاءات، ومدرسون لطلاب الحوزة على صورتين منهجية خلال التدريس، وعامة في سائر احوالهم، وقضاة للفصل في الخصومات، ومصلحون لحل المشاكل الاجتماعية، وآباء يمسحون جراح اسرتهم الكبيرة، ورصيد مذخور لسد حاجة ذوي الحاجات. فيفترض فيهم انهم صندوق ضمان لذوي الخصاصة سواء كانوا في عسر او يسر ولعل ما ذكرته لا يؤلف كل فعالياتهم، فهناك الكثير الكثير المطلوب منهم في مختلف المجالات فبعد هذا اليس معجزة ان يتسع وقتهم لانجاز عمل علمي يتصف بالغزارة حجماً ومضموناً؟ اننا نعرف ان الجامعات تؤلف لجاناً ومجاميع من العلماء للتوفر على انتاج موسوعة علمية في حقل من حقول المعرفة. ولكننا نرى الجوامع تصنع الرجل الموسوعة الذي يقوم وحده وبامكانات محدودة بعمل تعجز عنه الجماعة والشواهد على ذلك كثيرة.

وبنظرة خاطفة يمكننا التعرف على الابعاد التي ولجها الامام الخوئي: فمعجم رجال الحديث ومباحث الاصول المتمثلة في تعليقته على ما افاده الميرزا النائيني قدس سره، وما كتب بخط تلاميذ الخوئي: كالكوكبي، والفياض، والزنجاني وغيرهم، والبحوث الفقهية المتمثلة في اقلام تلاميذه كالشاهرودي وغيره وفي مباني المنهاج ومستند العروة الوثقى. عدى الرسائل العملية والملحقات المتمثلة في المسائل والردود ومستحدثات المسائل. ثم البحوث الفلسفية والكلامية التي سجل السيد لمعاً منها في كتاب البيان وغطت معظم البحوث التي خاضها في هذا الكتاب. كل ذلك الذي كان السيد يمتح فيه من نبع لا ينضب يدل على استيعاب وهضم لهذه المعارف وقدرة على الافادة منها وتنوع يتصف بالشمولية ذلك ما يكشف عن معنى الوقت المبارك فيه والذهن الذي منح القدرة على تجاوز الكلل. اما الخوئي المفسر فهو ما سأتناول ان شاء الله تعالى طرفاً منه.

الامر الثاني

تأكيد السيد في المقدمة على عناوين معينة اكثر من غيرها سأشير اليها، وقبل ذلك اقول: ان كتاب البيان درسناه في كلية الفقه -مرحلة بكالوريوس- كمفردة من مفردات المنهج وكان مدرسنا فيه حجة الاسلام التقي الايرواني مد الله في عمره وكنت اثناء الدراسة اتساءل في داخل نفسي عن سر تركيز السيد على عناوين خاصة دون اخرى كنت اتصور انها أولى بالبحث: مثل مذاهب التفسير، او تصنيف المضمون القرآني الى حقوله المتنوعة، او

قاد حوزة علمية من خيرة الفضلاء منذ ايامه الاولى

الدعوة الى توفر ذوي التخصص في العلوم المختلفة على تناول المواضيع التي تتصل بهم وهكذا. وكان سؤالي هل ان السيد يتناول ذلك خلال مسيرته في التفسير التي انقطعت مع الاسف الشديد ولم يتسنى لها الاستمرار ام ماذا؟ ولقد سألته قدس سره ذات يوم في ديوانه عن سر انصرافه الى معجم رجال الحديث دون اتمام التفسير وفهمت من جوابه ان بحث رجال الحديث لاتصاله الوثيق بالمضمون الفقهي يستأثر عنده بأهمية خاصة خصوصاً وهو يقود الحوزة فقهياً والحاجة ملحة الى موضوع المعجم لأمرين: الاول ان الفقه يغطي آيات الاحكام ضمناً باعتبارها مدارك، وثانياً ان باقي مواضيع القرآن الكريم قد كتب فيها الكثير، ثم بعد ذلك وبمرور الوقت عرفت سر تركيز السيد على هذه المواضيع دون غيرها ذلك انها من نقاط الاحتكاك الشديد بين المذاهب الاسلامية وتشكل قيماً نسبح حولها من مواخذات على الشيعة لا وجود لها في الواقع: بؤر توتر، وسواء كانت كتابة من كتب الشيعة ناتجة عن شبهة او قصد سيء لا سمح الله او عن تقليد فلابد من كشف الحائق وبيان مذاهب الشيعة في ذلك، فمثلاً مما تناوله السيد واكد عليه حجية ظواهر الكتاب وتلك مسألة كثر حولها القول ممن رمانا باننا نصرف القرآن عن ظاهره ونتفرع الى تفسير باطني والى تأويل فاسد فدحض السيد هذه الاقوال واشبع البحث برأينا في ذلك والح الى انه لو انفرد شخص برأي يمثله هو فلا ينسحب ذلك على امة بكاملها وآراؤها صريحة في حجية ظواهر الكتاب، ولسنا نتفرد بوجود رأي شاذ فان كل المذاهب الاسلامية يوجد عندها من ينفرد برأي يخالف المجموع ولا ينسحب ذلك على المذهب كله.

وتعقيباً على اشارة السيد قدس سره اذكر نموذجين من ذلك عند اهل السنة:

الاول

ما ذكره اسماعيل حقي في تفسيره روح البيان وذكره الحافظ ابن الكلبي في التسهيل في تفسير قوله تعالى: «كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى»، قال اخرج شطأه بابي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى بعلي، الآية ٢٩ من سورة الفتح وقد حرف الآية عن ظاهرها الذي نصت عليه التفاسير، والثاني ما ذكره الفخر الرازي عن مفسر عند تفسير قوله تعالى «وكلم الله موسى تكليما»، اي جرحه باظفار المحن والخطوب، ولا اريد ان اورد الكثير من ذلك فهو عندهم كثير، اما من يصرف الآية عن ظاهرها عندنا فانما يفعل ذلك اذا تعذر حملها على الظاهر مثل قوله تعالى «يد الله فوق ايديهم» في صرفها عن الجارحة الى القوة، ومثل وجود قرينة تصرفها عن الظاهر مثل قوله تعالى «انا اعطيناك الكوثر» ان المراد به الحسنان لان السورة نزلت رداً على المشركين الذين قالوا عندما درج اولاد النبي (ص) بقي محمد ابتر لا عقب له فاخبره الله تعالى انه جعل عقبه في ذرية الحسنين عليهما السلام وهكذا. وعلى العموم فلقد كان تأكيد السيد على ذلك للاسهام في ازالة هذه الشبهة ونظائرها مما يراه من يقرأ ما كتبه في البيان والنحي فيه من الآراء الشاذة وفندها وأوّل بعضها.

ومن بؤر التوتر التي عالجها السيد واطال فيها بما يتناسب واهميتها: مسألة وقوع التحريف بالقرآن الكريم او عدم وقوعه. وهذه المسألة لعبت بها الاقلام والاهواء -ومازال- دوراً غير مشرف ورجعت بها الى بعض الكتّاب والى كتب الاخبار لا الى كتب الفقه والمسألة مكانها كتب الفقه لانها المرتبطة بها عضوياً كما لا يخفى وقد الح كتّاب اهل السنة في نسبة ذلك لنا مع اننا لو قمنا باحصاء بسيط لوجدنا في كتب اهل السنة اضعافاً مضاعفة من الروايات والآراء التي تذهب الى القول بالتحريف. وكما هي ليست بمعتد بها عندهم كذلك هي عندنا مطروحة ولا يعتد بها وبعضها مؤوّل بأن التحريف هو عبارة عن صرف مضامين الآيات الى غير ما نزلت له. لقد



استعرض السيد هذه المسالة فذكر ادلة وآراء من يذهب لذلك وفندها ودحض الشبه التي اوردوها بما لا مزيد عليه من البيان كما اشار الى ان جمهور المسلمين يرفضون هذه المقولة واستعرض آراء اساطين الامامية الذين رفضوا هذا الزعم وبرهنوا على بطلانه ومنهم الشيخ الصدوق والشيخ الطوسي والسيد المرتضى علم الهدى والشيخ الطبرسي والشيخ جعفر كاشف الغطاء والشهرستاني في العروة الوثقى، والفيض الكاشاني في الوافي وفي علم اليقين والجواد البلاغي في آلاء الرحمن والشيخ المفيد والبهائي والقاضي نور الله الى غير هؤلاء، كما استعرض آراء بعض فقهاء ومحدثي اهل السنة التي تنتهي الى القول بالتحريف كالقول بنسخ التلاوة كما ورد في كل من صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب انه قال على المنبر: كان مما انزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ودعيناها فلذا رجم رسول الله ورجمنا بعده فاخشى ان طال بالناس زمان ان يقول قائل والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فضيلة انزلها اليه والرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا احصن من الرجال ثم انا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله! ان لاترغبوا عن آبائكم او ان كفرا بكم ان ترغبوا عن آبائكم، وقد نص اهل السنة على ان هذه الآية مما نسخت تلاوته، واخرج الطبراني بسند موثق عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: القرآن الف الف وسبعة وعشرون الف حرف، ذكر ذلك السيوطي في الاتقان. بينما القرآن الذي بايدي المسلمين لا يبلغ ثلث هذا المقدار، وروى عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي قالت: كانت سورة الاحزاب تقرأ في زمن النبي مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها الا ما هو الآن، ذكر ذلك السيوطي في الاتقان، كل هذا مجرد نموذج بسيط ذكره السيد في هذا الباب، وبين يدي من المصادر ما هو اضعاف ذلك ولكن ما ذكرته كان للتدليل.

لقد اطنب السيد في الدفاع عن كتاب الله المجيد وفي صيانته عن التحريف وجاء بادلة غاية في المتانة فجدير بالمرجفين -اذا كانوا طلاب حقيقة وهم غالباً ليسوا كذلك- ان يرجعوا الى هذا البحث وامثاله ليرتدوا عن رمي اتباع اهل البيت بهذه التهم الباطلة وما اظنهم يفعلون.

ومن المسائل التي لا تقل اهمية عما سبقها وهي مما كثر فيها التهويش ايضاً: مسالة البداء التي تصدى لها السيد، انه المتغيير الذي يتناول بعض الامور التكوينية كالاعمار والارزاق والسعادة والشقاء وغير ذلك مما هو ليس في قسم القضاء المحتوم وانما هو من القسم الذي تتعلق مشيئة الله بتغييره من اول الامر ولكن لا يظهر الله ذلك الا في وقته فهو بمعنى الابداء وانما اطلق عليه لفظ البداء بعلاقة المشاكلة وليس بمعنى بدء شيء لم يكن الله تعالى يعلمه ثم علمه، فذلك كفر. والروايات الواردة عن آل محمد صريحة بهذا المعنى فقد قال الامام الصادق عليه السلام: ما بدا لك في شيء الا كان في علمه قبل ان يبدو له، وقال ان الله يقدم مايشاء ويؤخر ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده ام الكتاب فكل امر يريده الله في علمه قبل ان يصنعه ان الله لا يبدو له من جهل، وقال من زعم ان الله يبدو له في شيء لم يعلمه امس فابرؤوا منه. لقد تناول السيد هذا الموضوع فجلى غوامضه واحاط بالموضوع من كل اطرافه وتصدى لما يرد عليه من شبه فدفعها واوضح رأي الشيعة في ذلك: في امكانه، ووقوعه وذكر الى جانب قول الشيعة اقوالاً لاهل السنة في ذلك وهي لاتختلف عن رأي الشيعة ومنها ما رواه البخاري بسنده عن ابي هريرة عنه صلى الله عليه وآله، انه قال: ان ثلاثة في بني اسرائيل ابرص واعمى واقرع بدا لله عز وجل ان يبتليهم فبعث اليهم ملكاً الخ الرواية، التي اوردها في باب ما ذكر عن بني اسرائيل، ومثل الروايات التي ذكرها اهل السنة في ان الدعاء يغير القضاء والصدقة تغير القضاء كما ذكر ذلك ابن ماجة في سننه في باب القدر، بسنده قال النبي صلى الله عليه وآله لا يزيد في العمر الا البر ولا يرد القضاء الا الدعاء وان الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها، كما اشار السيد الى بعض الاستعمالات القرآنية لهذا المعنى كقوله تعالى: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملاً»، وكقوله تعالى: «لنعلم اي الحزبين احصى لما لبثوا امداً»، وسر اهتمام السيد بهذا الموضوع يتضح عند مراجعة تفاسير اهل السنة لامثال هذه الآيات وتحاملهم على الشيعة وتصويرهم لرأي الشيعة بانهم يعتقدون ان الله يبدو له ما لم يكن يعلمه سابقاً، وهو قول يفضي للكفر اعاذنا الله من ذلك وقد استشهد السيد بقول الرازي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب» قالت الرافضة ان الله يعتقد شيئاً ثم يظهر له ان الامر بخلاف ما اعتقده، اضافة لذلك اذكر اني خلال مطالعاتي رأيت الكثير من مثل هذه النسبة، وليت الأمر اقتصر على القدامى الذين اعوزتهم مصادرنا فلعل لهم بعض العذر، ولكننا نرى ان الامر مطرد حتى عند المحدثين وعلى سبيل المثال: الدكتور مصطفى زيد وكان رئيس قسم الشريعة في كلية دار العلوم ايام دراستي هناك، قرأت كتابه (النسخ في القرآن) وحينما قسم النسخ الى تشريعي وتكويني صور النسخ التكويني بانه ينتهي الى استحداث علم لم يكن سابقاً وقال ان القائلين بذلك اليهود والرافضة اخزاهم الله الخ، وكانت لي معه مناقشة حول الموضوع لفت فيها نظره الى خطأ مستنده وذكرت له رأينا وقد قدمت له مصادرنا في ذلك فاعتذر ووعد بانه سيغير ذلك في طبعات جديدة، وقد لحق بربه ووفد عليه ولم ار لما وعد به اثراً ولعله عوجل بالوفاة رحمه الله. ولا بد هنا من لفت النظر الى اني رأيت كثيراً من اساطين السنة يعالجون الموضوع بنفس منهج وادلة الامامية وبوسع القارىء الرجوع الى ما كتبه كل من السيوطي في الدر المنثور والقرطبي في تفسيره والآلوسي في روح المعاني وغير هؤلاء وذلك عند تفسيرهم للآية المباركة: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب»، وساذكر بعض النماذج هنا ليطلع القارئ على نفس النمط في المعالجة للموضوع: يقول القرطبي عندما يحدد ما يمحى وما يثبت ذاكراً قول القشيري: قال يقول القشيري السعادة والشقاوة والخلق والرزق لا تتغير فالآية فيما عدى هذه الاشياء، وعقب عليه القرطبي بقوله وفي هذا القول نوع تحكم حتى قال فتكون الآية عامة في جميع الاشياء وهو الاظهر والله اعلم. وهذا مروي عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وابي وائل وكعب الاحبار وغيرهم وهو قول الكلبي، وذكر ان عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني في اهل الشقاوة والذنب فامحني واثبتني في اهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب، وكذلك تماماً كان دعاء ابن مسعود وكان مالك بن دينار دعا لامرأة فقال: اللهم ان كان في بطنها جارية فابدل لها غلاماً، فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب. وقد تقدم في الصحيحين عن ابي هريرة قول النبي صلى الله عليه وآله من سره ان يبسط له في رزقه وينسأ له في اثره فليصل رحمه، واستمر القرطبي يحشد الادلة على التغيير التكويني الى ان وصل الى قوله: ان من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً وهو الثابت ومنه ما يكون مصروفاً باسباب وهو المحو، وبنفس المعنى كتب كل من السيوطي والآلوسي وغيرهما وهو عين ما كتبه مفسروا الامامية. والذي يظهر لي ان سوء الفهم جاء من لفظ البداء فانهم فسروه بمعنى الظهور وهو يعطي معنى الانكشاف بعد خفاء وقد عرفت ما ذكرناه سابقاً من بطلان هذا التصور، وقد انصب بحث السيد على هذه النقطة وتجليتها تجلية كاملة.

وآخر ما اريد تقديمه من النماذج التي تناولها السيد واكد عليها في مسالة القول بخلق القرآن اي قدمه وحدوثه، وقد جاءت معالجتها ضمن بحث صفات الباري تبارك وتعالى وهي تنقسم الى صفات ذاتية واخرى فعلية. بدأ السيد بالاشارة الى ان هذه المسالة حادثة وقد نشأت من تغلغل الفلسفة اليونانية عند المسلمين ومن ذلك ذهب الاشاعرة الى تقسيم الكلام الى نفسي قائم بالذات، ولفظي يدل على التعيين وانتهوا بعد شرح الى ان القرآن قديم، بينما ذهب العدلية والمعتزلة الى حدوث القرآن والى ان الكلام منحصر باللفظين وان التكلم صفة فعلية، والصفات الفعلية هي التي يمكن ان يتصف بها الله تعالى في حال وينقضها في حال آخر، فالذاتية لا تنفك عنه بحال من الاحوال كالحياة والعلم والقدرة، والفعلية هي مثل الكلام والخلق والرزق



وبالنظر لاهمية هذه المسالة ساستعرض لك آراء فرق المسلمين فيها مع شيء من التعقيب:

الحنابلة

والذي ينقل عنهم ان كلام الله تعالى مؤلف من حروف واصوات على الترتيب والتعاقب في وجودها وهي قديمة بل ونقل القول عن بعضهم يقدم جلد القرآن غلافه وقد وجه البعض قولهم بانهم انما قالوا يقدم القرآن ولم يقولوا بحدوثه حتى لا يذهب الوهم الى حدوث حتى الكلام النفسي الذي يقول به الاشاعرة، فهم بالوقت الذي يراعون به الادب في الامتناع عن اطلاق لفظ الحدوث يلزمهم ما يترتب على رايهم من اللوازم التي منها تعدد القدماء وهو شرك، كما ان هذا الكلام يصادم البديهة لان التعاقب يفيد الحدوث فكيف يجتمع مع القديم.

الكلامية

فهؤلاء يقولون ان كلام الله تعالى حروف واصوات وهي حادثة قائمة بذات الله تعالى لانهم يجيزون ان يكون تبارك وتعالى محلا للحوادث.

المعتزلة

رأيهم ان كلام الله تعالى اصوات وحروف كالرأيين السابقين، ولكنها ليست قائمة بذات الله تعالى بل يخلقها في غيره، فمعنى كونه تعالى متكلماً ان يوجد تلك الحروف والاصوات في مثل اللوح المحفوظ او الملائكة التي تنقل كلامه او الانبياء الذين يقرأون كلامه.

الاشاعرة

وعندهم ان كلام الله نفسي وليس من جنس الاصوات والحروف بل هو قائم بذات الله يسمى بالكلام النفسي ويدل عليه الكلام اللفظي المركب من الحروف والاصوات. اما رأي الشيعة فسيأتي بقلم الخوئي ولما كان رأي المذاهب السنية بقدم القرآن يستلزم اموراً منها تعدد القدماء لانه صفة لله تعالى. وحيث ان من البديهي ان الحروف والاصوات الملفوظة والمكتوبة وجودها مترتب فهي حادثة، يضاف لذلك انها اعراض قائمة بغيرها، ومفتقرة في وجودها وبقائها الى سبب لذلك، والى محل تقوم به مما لا يلتقي مع التوحيد، اضطروا للقول بالكلام النفسي وتركوا القول بقدم الاصوات والحروف فنلخص ما ذكرناه ان منهم من يذهب الى قدم الاصوات والحروف، ومنهم من يذهب الى الكلام النفسي الذي فسروه بالمعنى القائم بالنفس والذي هو مدلول للكلام اللفظي وكان من ادلتهم قوله: «تعالى ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله» (المجادلة ٨)، ويقول الخليفة عمر كنت قد زورت في نفسي مقالة يوم السقيفة، ويقول الاخطل الشاعر:

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

الى غير ذلك، وقد رأيت لبعضهم رأياً مفاده: ان كلام الله هو الالفاظ التي رتبها الله تعالى في علمه الازلي بالصفة الازلية التي هي مبدأ ترتيبها وتاليفها، وقد رد عليهم المعتزلة بأدلة مطولة، واجابوا على الرد، ونظراً لاتضاح صورة النزاع فلا داعي للاطالة ومن ارادها فعليه بالمطولات والمصادر التي سنذيل بها البحث.

ومن تأمل هذه المعاني التي ذكرناها سيرى ان النزاع يعود لامرين، امر لفظي وهو ان اتصافه تعالى بالكلام يدل عليه النقل كقوله تعالى: «وكلم الله موسى تكليما» (١٦٤ الانبياء)، وكقوله تعالى: «ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا» (٥١ الشورى)، كما دل عليه الاجماع والعقل لان التكلم صفة كمال، ولكن هذا الكلام هل هو قائم به تعالى، او القائم به هو التكلم الذي هو خلق الكلام ولو بخلقه في جسم من الاجسام. فالاشاعرة يقولون بقيام الكلام به وهذا الكلام قديم لئلا يكون تعالى محلاً للحوادث. اما الشيعة والمعتزلة فيقولون ان المتكلم من صدر عنه الكلام سواء بالوسائط المعدة لذلك المعتادة وغير المعتادة: مثل لسان الملك وشجرة نبي الله موسى (قد قيمت هذه المسالة في تصوير تلبس المشتق بالمبداء باي نحو هو).

والحاصل ان الامامية يذهبون الى ان الكلام من الصفات الفعلية كالخلق والرزق ومن هنا قال امير المؤمنين (ع) «اصل المعرفة توحيده ونظام توحيده نفي الصفات عنه بدليل ان كل صفة غير الموصوف وكل موصوف غير الصفة وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران وشهادة الاقتران بالحدوث وشهادة الحدث بالامتناع من الازل». ومن المؤسف ان هذه المسالة لعبت في تاريخ المسلمين دوراً مأساويا، واختلفت الآراء في: هل انها مجرد انقداح علمي عند مفكري المسلمين وتبنته الدولة لصلته بالوحدانية، ام انها عملية مصطنعة استغلت لتصفية الخصوم سواء على مستوى الدولة، او على مستوى الفرق الاسلامية، ام ان هناك قضية تريد السلطة تمريرها فاحدثت هذه الزوبعة لشغل الناس؟ لقد توزعت آراء الباحثين حول ذلك، وقد تعرض بسبب هذه المسالة جماعة للقتل والاضطهاد والسجن والملاحقة وصارت سبة يشتم بها البعض بل وصل الامر الى حد الطرافة: يقول الا بشيهي في المستطرف في باب فضل القرآن عن ابراهيم الخراس انه دعي للقرائة في اذن مصروع يقول فكبرت في اذنه واردت ان اقرأ فسمعت صوتاً يقول دعني اقتله فانه يقول القرآن مخلوق، وقد تعرض للاضطهاد جماعة ممن يقول ان قرائتي بالقرآن مخلوقة لانها حروف متتالية يحدث بها الحرف بعد الآخر ومن هؤلاء البخاري ومسلم فقد تعرضا للنقد والتجريح لقولهما بذلك فقيما يخص البخاري قال المناوي في ترجمته في بعض ما قال: زين الأمة وافتخار الائمة صاحب اصح الكتب بعد القرآن وقال عنه الذهبي كان من افذاذ العالم مع الدين والورع والمتانة، ومع ذلك غلب عليه الغض من اهل السنة وكُتب في كتاب الضعفاء والمتروكين وقيل عنه ما سلم من الكلام لاجل مسالة اللفظ وتركه لاجلها الرازيان -اي ابو زرعة الرازي وابو حاتم الرازي- ذكر ذلك صاحب فيض القدير ج١، وقال الذهبي نقلاً عن الحاكم سمعت محمد بن يعقوب الحافظ يقول لما استوطن البخاري نيسابور اكثر مسلم بن الحجاج -صاحب الصحيح- الاختلاف اليه فلما وقع بين الذهلي وبين البخاري ما وقع في مسألة اللفظ انقطع عنه اكثر الناس غير مسلم فقال الذهبي يوماً الا من قال باللفظ فلا يحل له ان يحضر مجلسنا فاخذ مسلم ردائه فوق عمامة وقام، وقال الذهلي محمد بن يحيى يوماً لا يساكنني هذا الرجل يعني البخاري في البلد فخشى البخاري وسافر، ذكر ذلك صاحب سير اعلام النبلاء ج٢ وصاحب هدي الساري في مقدمة فتح الباري ج٢، اما الامامية فقد خشرا لقولهم بخلق القرآن على النحو الذي سيأتي تصويره بقلم السيد وممن شتمنا وارخ لبداية قولنا بذلك الشيخ ابو زهرة فقد قال فيما قال في كتابه الامام الصادق (ع) اول من قال بخلق القرآن بيان بن سمعان التميمي و قتله خالد بن عبد الله القسري والي العراق من قبل الامويين، والصحيح ان اول من قال واعلن بذلك الجعد بن درهم فقتله خالد بن عبد الله المذكور. اما بيان فقد ادعى النبوة ودعى الامام الباقر عليه السلام الى طاعته بالاضافة الى افكار مشوشة عنده تتضح لمن يقرأه فيما ترجم له مثل اعيان الشيعة وغيره. وسأحاول ان الخص لك معالجة السيد الخوئي بهذه المسألة وسيرته فيها: لقد استجلى الامام الخوئي هذه المسالة وابان غوامضها بالرغم من ان عباراته فيها لا يسهل فهمها الا لذوي الفن والمعرفة لهذه الامور: بدأ السيد فقسم الصفات الى صفات افعال وصفات ذات وميز بينهما، وسلك الكلام في صفات الافعال وقسمه الى نفسي ولفظي وحدد معنى الاثنين واكد ان ما يسمى بالنفسي ليس الا الصورة الذهنية للكلام التي تسبقه عادة، كما قسم الكلام الى جمل اخبارية وانشائية، وحقق ان الكلام النفسي المدعى لا تشمله حدود الاثنين وانتهى الى نتيجة ان الكلام ليس الا المتبادر للذهن وهو الكيفية العارضة للصوت الحاصلة من تموج الهواء والقائمة بالهواء نفسه لا بالمتكلم، لئلا يلزم من كونه تعالى متكلماً انه محل للحوادث لو كان الكلام قائماً بالمتكلم، وقرب هذا المعنى للذهن فذكر: ان تلبس الذات بالمبدأ المستفاد من الهيئة -هيئة المشتق- هو نحو من انحاء قيام المبدأ بالذات دون خصوصية ذلك القيام بالذات من كونها حلولية او ايجادية او غير ذلك، لانها غير مأخوذة - اي الخصوصية- في مفاد الهيئة، كما انها تختلف باختلاف الموارد ليس لها قاعدة كلية، فمثلاً المتلبس بالنوم والعلم لا يعتبر موجداً لهما ولكن مثل النافع والضار موجد للنفع والضر، وانتهى من ذلك الى انه لايلزم عدم صحة اطلاق المتكلم على الله تعالى لشبهة كونه محلاً للحوادث حينئذ ولذا قالوا بالكلام النفسي للتخلص من ذلك، وبعد ان فند هذا التصور دعم رأيه بالادلة التي توضح هذا المعنى.

ـه